

تفسير البحر المحيط

@ 286 @ تدخل على الممكن والممتنع نحو قوله { لَتَنِينَ أَشْرَكَتَ } . . .
{ أَوْ لَمْ } * يَرِ السَّذِينَ كَفَرُوا * أَنْ * السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ * كَانَتَا
رَتَقًا وَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَاهَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شِدَّةٍ حَيٍّ أَفَلَا
يُؤْمِنُونَ * وَجَعَلْنَاهَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِي أَنْ تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَاهَا
فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ * وَجَعَلْنَاهَا سَمَاءً سَقْفًا
مَحْفُوظًا وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرَضُونَ * وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّيْلَ
وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ * وَمَا جَعَلْنَاهَا
لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ الْخُلْدَ أَفَإِ يَن مَّتَّ فَهُمْ الْخَالِدُونَ * كُلُّ نَفْسٍ
ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا
تُرْجَعُونَ } . . .

هذا استفهام توبيخ لمن ادعى مع الله آلهة ، ودلالة على تنزيهه عن الشريك ، وتوكيد لما
تقدم من أدلة التوحيد ، ورد على عبدة الأوثان من حيث أن الإله القادر على هذه المخلوقات
المتصرف فيها التصرف العجيب ، كيف يجوز في العقل أن يعدل عن عبادته إلى عبادة حجر لا
يضر ولا ينفع والرؤية هنا من رؤية القلب . وقيل : من رؤية البصر وذلك على الاختلاف في
الرتق والفتق . وقرأ ابن كثير وحמיד وابن محيص ألم يَرَ بغير واو العطف والجمهور {
أَوْ لَمْ } بالواو . { كَانَتَا } قال الزجاج : السموات جمع أريد به الواحد ، ولهذا
قال { كَانَتَا رَتَقًا } لأنه أراد السماء والأرض ، ومنه أن الله يمسك السموات والأرض أن
تزولا جعل السموات نوعاً والأرضين نوعاً ، فأخبر عن النوعين كما أخبر عن اثنين كما تقول
: أصلحت بين القوم ومر بنا غنمان أسودان لقطيعي غنم . وقال الحوفي : قال { كَانَتَا
رَتَقًا } والسموات جمع لأنه أراد الصنفين ، ومنه قول الأسود بن يعفر : % (إن المنية
والحتوف كلاهما % .

يوفي المحارم يرقبان سوادي .

%)

لأنه أراد النوعين . وقال أبو البقاء : الضمير يعود على الجنسين . وقال الزمخشري :
وإنما قال { كَانَتَا } دون كن لأن المراد جماعة { السَّمَاوَاتِ } وجماعة { الْأَرْضِ }
ونحو قولهم : لقاحان سوداوان إن أراد جماعتان فعل في المضمر ما فعل في المظهر . وقال
ابن عطية : وقال { كَانَتَا } من حيث هما نوعان ونحو قول عمرو بن شليم : % (ألم

يحزنك أن جبال قيس % .

وتغلب قد تباينت انقطاعا .

. %)

قال ابن عباس والحسن وعطاء والضحاك وقتادة : كانتا شيئاً واحداً ففصل الله بينهما بالهواء . وقال كعب : خلق الله السموات والأرض بعضها على بعض ثم خلق ريحاً بوسطها ففتحها بها وجعل السموات سبعاً والأرضين سبعاً . وقال مجاهد والسدي وأبو صالح : كانت السموات والأرض مؤلفة طبقة واحدة ففتقها فجعلها سبع سموات ، وكذلك الأرضون كانت مرتتفة طبقة واحدة ففتقها وجعلها سبعاً . وقالت فرقة : السموات والأرض رتق بالظلمة وفتقها الله بالضوء . وقالت فرقة : السماء قبل المطر رتق ، والأرض قبل النبات رتق { فَفَتَقْنَا هُمَا } بالمطر والنبات كما قال { وَالسَّمَاءَ ذَاتِ الرَّجْعِ * وَالْأَرْضَ ذَاتِ الصَّدْعِ } قال ابن عطية : وهذا قول حسن يجمع العبرة وتعدد النعمة والحجة للمحسوس بين ، ويناسب قوله { وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ } أي من الماء الذي أوجده الفتق انتهى . .

وعلى هذين القولين تكون الرؤية من البصر وعلى ما قبلهما من رؤية القلب ، وجاء تقريرهم بذلك لأنه وارد في القرآن الذي هو معجزة في نفسه فقام مقام المرئي المشاهد ، ولأن تلاصق الأرض والسماء وتباينهما كلاهما جائز في العقل فلا بد للتباين دون التلاصق من مخصص ، وهو الله سبحانه وقرأ الجمهور { رَتَقًا } بسكون التاء وهو مصدر يوصف به كزور